

بعض مشاهداتي وانطباعاتي عن الولايات المتحدة الأمريكية^(١)

بناء على الاتفاق بين وزارة المعارف والجهة الأمريكية ومواقفة مجلس الوزراء ، تقرر سفري الى الولايات المتحدة الأمريكية ، للوقوف على أحوال الطلبة العراقيين ، فإن فيها زهاء ٨٠٠ طالب يدرسون أنواع العلوم والفنون في أقطار تلك المملكة ، زهاء نصفهم يدرس على نفقة الحكومة العراقية ، والباقي يدرسون على نفقتهم الخاصة ؛ كذلك للتعرف على الجامعات والكليات والمدارس المهنية والمعاهد العلمية على اختلاف صراحيلها ومقاصدها . وفي أثناء تجوالي في تلك البلاد الواسعة الأرجاء ، لفتت نظري أمور كثيرة سأنتطرق لبعضها في هذا الحديث . على أن ما أود أن أبينه سلفاً هو أن طبيعة مناهجي والغاية التي توخيتها من زيارتي ، جعلت مشاهداتي مقتصرة على أحسن ما في تلك البلاد من مؤسسات ، ونشأت انطباعاتي عنها من محادثتي مع أرقى الطبقات المثقفة من رؤساء جامعات وعمداء كليات ومديري معارف وأساتذة ومديري مدارس وطلبة ، أي أن اطلاعي كان منحصراً في النواحي العلمية والفنية ، تلك النواحي التي قامت عليها حضارة أمريكا وثقافتها ، وجعلتها مراد طلاب العلم من أربع جهات المعمورة . (وإذا كانت للحياة الأمريكية ناحية مرحلة ، فإن الفرصة كانت ضيقة أمامي لمعرفة ، والقليل الذي شاهدته منها عرضاً لا يسوغ حديثي عنها حديث المجرّب الخبير) .

تحرّكت من بغداد صباح اليوم الـ ٢٨ من نيسان ١٩٥٣ الى لندن ، قبلتها مساء اليوم نفسه ، وبقيت فيها أربعة أيام زرت خلالها « باترسي بوليتكنك » ، وهي كلية اختصت بتدريس فروع الهندسة الصناعيّة يؤمها ٩٠٠ طالب مهاري و ١٨٠٠ طالب مسائي . ويدرس الطالب النهاري ثلاثين ساعة في الأسبوع ، عشرة منها دروس نظرية ، وعشرون للتدريب على « المساكين »

وإنجاز التجارب في المختبرات ، وعميدُها - ويدعى الدكتور وست - رجل جمّ النشاط والذكاء ، وكان أهمُّ ما قاله لي إن طلاب الشرق الأوسط قلما يميلون الى النواحي العملية التطبيقية من العلم ، ولا يعجبهم أن يعمروا أيديهم على العمل ؛ ونصح ألا يرسل أحد لدرس أي فرع كان من فروع الهندسة الصناعية ما لم يتدرب أولاً في أحد العمال ، كعمل السكك الحديدية في بنّاد أو معامل شركة النفط أو أيّ معمل آخر مدةً تتراوح من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر ، فذلك مما يجعله أكثر استعداداً لمجابهة الدراسة الفنية في انكثارة وأقوى على فهمها ، وبشعره بلذة العمل وشرفه وأثره في انتاج الثروة ورفع المستوى الاقتصادي للبلاد ، وإن قراءة الكتب وحفظ النظريات والقوانين العلمية لا تكفي وحدها لتكوين الإنسان العامل المنتج اذا لم يقرنها بأعمال الفكر وإحكام التطبيق العملي .

وفي مساء اليوم الثاني من مايس سافرت في طائرة أمريكية مع خمسة وستين راكباً الى مدينة نيويورك ، فبلغناها سحر اليوم التالي . وهذه الطائرة كالتائرة السابقة قطعة رائعة من الفن الهندسي وحسن الذوق وكمال التنظيم . وقبل حركتها رحب بنا الرّبان ، وقال : ستدلكم المضيّفة على كيفية استعمال قيص النجاة دفْعاً لكل الاحتمالات . فقلت في نفسي : إنه والله لفأل شيء أن نفتتح سفرتنا عبر الأطلنطيك بمثل هذا . ونهضت المضيّفة ، فأفهمتنا كيفية استعمال القميص ، واعتذرت بأن القانون هو الذي يحتم ذلك ، وأكدت لنا أننا لن نضطر الى قطع الأطلنطيك سباحة الى أمريكا ! ولما حومت الطائرة فوق مدينة « نيويورك » ، كانت الغيوم تحتنا كأنها جبال من القطن المنفوش ، لا نفرة فيها . ولكن الطائرة اخترقها ، ونزلت في المكان المعد لها وكأنها تهبط على أجنحة الملائكة . وكان المطار يعج بمئات الطائرات ما بين واقف وسائر وطائر ، فلا تكاد تمر دقيقة من الزمن دون أن تحط فيه طائرة أو تغادره أخرى . وأول ما يلتفت نظر القادم من مظاهر الحضارة الأمريكية ، نخامة المباني ومسوحها ، وكثرة السيارات وجنونها ، والقوة الصناعية الهائلة التي يظهر طابعها في كل شيء وفي كل مكان .

بقيت في « نيويورك » ثلاثة أيام ، زرت فيها البيت الأبيض في جامعة « كولومبيا » ، وقد اتمت في أمهاته الطلاب والطالبات ، يتحدثون ويمرحون . وزرت بناية هيئة الأمم ، ومنظرها

من الخارج أشبه بعلية كبرت ضخمة ، وقانا الله شرها وشرارها اذا التهمت الأفكار فيها . وكانت احدى الصور المنقوشة على أحد جدران القاعة العامة موضع حديث بيني وبين الأصدقاء الذين تكرموا بدعوتي اليها ، ذلك أنها كانت من النوع « السريالي » ، ويلوح لي أن « السرياليزم » فن من التصوير لا يجيده إلا مجانين الرسامين أو عباقرتهم ، وقد أحسنوا صنعاً بتصوير هذه اللوحة على جدار القاعة العامة التي يتمثل فيها جنون السياسة العالمية . والمشاهد لمثل هذه الصور أن يفسرها كما يروق خياله ، فقال أحدهم : إنها تمثل كُريات الدم في جسم الانسان التي تنبهي للدفاع اذا ما دخلت جرثومة في الجسم ، وهو تفسير كما ترون يناسب المقام . وكان تفسيري لها أنها ترمز الى « الأميبا » ذلك الحيوان المجهرى المؤلف من خلية واحدة ، الذي يقال إن الحياة بدأت به على سطح الأرض . وقد رسمت هنا لتذكر الانسان العظيم بمقارة أصله ، فلا تتناول أمة على أخرى ولا فرد على آخر ، ولتقول للجبابرة : إن أسلحتكم ستفنيكم وتفتي البشرية معكم ، فتعود الأرض كما كانت في أول الخليقة خالية خاوية لتبدأ عليها الحياة بـ « الأميبا » ، وبقول علم « الجيولوجيا » : إن الحيوانات التي سادت الأرض ، لضخامتها وقوتها في عصور ما قبل التاريخ ، انقرضت بسبب هذه الضخامة والقوة بالذات ، فهل يعمل العقل البشري على إفناء الجنس البشري ؟ ذلك أمر سيكشفه المستقبل !

استغرقت رحلتى أربعة أشهر ، قطعت خلالها ما يزيد على عشرة آلاف ميل ، وزرت الكثير من الجامعات والمدارس المهنية والثانوية والابتدائية وبعض المكتبات العامة والجامعية وعدداً من المباني التذكارية ومعملين مهمين وهما معمل فورد للسيارات في « ديترويت » ومعمل « سجنار جستر فيلد » في « نورث كارولينا » . ولقد حاولت أن أكس أكثر ما يمكن من مشاهدات في هذا الزمن اليسير . على أن ما رأيته قليل جداً بالقياس الى ما هو موجود ، فالولايات المتحدة تكاد تكون وحدها قارة عظيمة ، وليس في وسع إنسان ما أن يشاهد حتى أهم ما فيها في مثل هذا الزمن القصير ، وقد تكونت في نفسي انطباعات كثيرة يصعب عليّ أن أترجم عنها جميعاً بسبب ضيق الوقت ، على أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه .

في الوسع تسمية الشعب الأمريكي بأنه « كوكيتيل » شعوب ، ذلك أنه مؤلف من

جميع أمم الأرض تقريباً ، وتمثل فيه جميع الأشكال والألوان من الأسود الفاحم الى الأبيض الشفاف . ومع أن هذه الشعوب ليست ممثلة بما يتناسب وتعدادها خارج أمريكا ، إلا أنها ممثلة بعدد ما ، قلّ أو أكثر ، كما أن فيها أقواماً هم سكانها الأصليون ويدعون الهنود الحمر ، وهذه الأقوام تمازج بالتدرّج وتتفاعل ليحصل منها شعب واحد منسجم متآسك . ومع أن الجنس الأسود لا يزال في عزلة أو شبه عزلة ، إلا أن القوانين الجديدة التي بدأت تشرعها بعض الولايات تحارب النعرات العرقية وتساوي بين البيض والسود . وأعتقد أن ذلك سيسري مع الزمن الى بقية الولايات ، وربما حدث ذلك ببطء شديد ؛ لأن الانسان - حتى في الولايات المتحدة - بطيء التطور فيما يتعلق بمقائده وعاداته الموروثة . وإذا كان من السهل على الفرد أو المجموع أن يتقبل مبتدعات الحضارة المادية ، لما يرى فيها من فوائد محسوسة ، فهو عنيد فيما يتعلق بتحرير فكره من الآراء التي اصطلحت عليها الأجيال الماضية وإن ثبت له بطلانها . وكما قاست البشرية ولا تزال تقاسي من وبيلات بسبب هذا العناد الفكري . على أن التمييز العنصري بين البيض والسود في أمريكا أمر مصيره الى الزوال عاجلاً أو آجلاً .

ومع أن الأمريكيين لا يتحدرون من أصل واحد ، إلا أنهم يعملون يداً واحدة فيما يتعلق بمصالح بلادهم والدفاع عنها ، بخلاف بعض الشعوب التي تربط بين أفرادها وأقطارها روابط أساسية لغوية ودينية وتاريخية واقتصادية ، ومع ذلك تجدها متفرقة أيادي سباً . أما الأمريكي ، فهم كان لونه أو أصله ، فهو يعتز باستقلاله ويتباهى بمجسسته الأمريكية أو بكونه مواطناً أمريكياً . وإنك لتجد العلم الأمريكي معلقاً على أبواب الفنادق وفي أماكن كثيرة بمناسبة وبلا مناسبة ، كما تجد في « واشنطن » مثلاً شارعاً يسمى « شارع الاستقلال » ، وآخر « شارع الدستور » ، ذلك عدا المباني الفخمة والنصب التذكارية الشاهقة والتماثيل العظيمة الرائعة لتخليد أبطال الحرية والاستقلال ، أو أوثاك الذين أسسوا هذه الدولة وبنوا مجدها وصانوا وحدتها . وكتب التاريخ تؤكد دائماً على سيرهم للمهمة وأفعالهم المحيدة .

يجب الأمريكي أن يذكر دائماً بأنك في بلد حر ، وهو يكرر عليك قوله « This is a free country » . والحقيقة أن الحريات كافة تمارس في هذا البلد إلا فيما

يتملق بالمبدأ الشيوعي . واني أرى أن الولايات المتحدة لو فتحت الأبواب على مصراعها أمام هذا المبدأ ، فهو لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة . موقفة الى داخلها ، ذلك أن الحالة السائدة فيها الآن لا تشابه بوجه من الوجوه حالة روسية القيصرية ، أو حالة الصين قبيل نشوب الثورة الشيوعية فيها . فالشيوعية إنما تجدد تربة خصبة في بلاد الفقر والجوع والاستغلال حيث تنمو وتترعرع . ولكنها لا يمكن أن تنتشر في بلد يعيش عامله وفلاحه عيشة السادة المرفهين . فبيت العامل والفلاح في المناطق التي زرتها ، منار بالكهرباء ومجهز بالماء النقي الحار والبارد مع تلفزيون أو راديو أو كليهما وسيارة تنتظره على الباب أو في « الكراج » وثلاجة ، ويملك بعضهم بالإضافة الى ذلك آلة لغسل الملابس وأخرى لغسل الآنية ، وجلهم ان لم يكن كلهم مؤثرين حياته وحياة أفراد أسرته ضد الطواريء والمرض والبطالة والموت وغيرها ، والأجور وافرة ، ولو لا ذلك لما استطاعوا أن يعمروا بهذه العيشة الرفيعة ، فمن مصلحة هؤلاء الناس الاحتفاظ بالوضع الراهن . ولم نسمع أن بلداً آخر ضمن لا كثرة سكانه عيشة أفضل من هذه وأرفع . أضف إلى ذلك أن القوم يكرهون « الدكتاتورية » وكل نوع من الحكم ينطوي على « الدكتاتورية » ، وهم لا يتسامحون بهذا الشأن في داخل بلادهم أبداً .

رب سائل يقول : اذا كان الأمر كما ذكرت ، فلماذا إذن حرمت الشيوعية هناك ؟ ولماذا تكافح بعنف وشدة ؟ والجواب أن ذلك ليس مبنياً على احتمال اقبال الناس عليها ، بل حذراً مما يمكن أن يقوم به معتنقو المذهب الشيوعي على قلوبهم من أعمال تدميرية عند وقوع حرب بين الجبهتين الشرقية والغربية . وهو نفس المبدأ الذي سارت عليه روسية تجاه ألمانيا النازية قبيل الحرب العالمية الأخيرة ، ولا تزال تسير عليه الآن تجاه الدول غير الشيوعية . وبالرغم من هذا الانقسام العالمي الى معسكرين ، وجدت رجال التربية الأمريكيين يحاولون محاولة جديدة أن يربوا أبناءهم لا على المواطنة الأمريكية ، بل على المواطنة العالمية كما صرح لي بعضهم بذلك . ففي الكثير من الكليات - حتى الهندسية والزراعية منها - يصرّون على تدريس تاريخ الحضارة لبيان ما قام به كل شعب من أعمال مشرفة في بنائها ، كما يدرسون موضوعات اجتماعية أخرى لمعرفة العلاقات الإنسانية ، فهم على ما يلوح لي يستهدفون وحدة عالمية على وفق أسس جديدة .

ولديهم رجال منتشرون الآن في جميع جهات العالم يدرسون وينقبون ، وإذا ما عادوا ألفوا الكتب وألقوا بالمحاضرات عن مشاهداتهم . وقد حضرت في « أسنن تكسنس » نادياً « للروثاري » ، وكان المتحدث فيه قد زار ألبا كستان ، فاستعرض أوضاعها ومشكلاتها الداخلية والخارجية استعراض خبير .

يمتاز الأمريكي بروحه المرحه ، وحبه للنكتة . وقد يظهر لك ساذجاً يصدق كل ما تقوله ، والحقيقة أنه ناقب الفكر بعيد النظر ، على أنه أميل إلى تصديق ما يجهله إذا كان ضمن نطاق العقول . وهو رجل عملي ، يقبل على العمل ، ويمارسه بشوق ورغبة ، ويتباهى بصنع يديه . رأيت سيداً أمريكياً ، وهو مهندس كهربائي ناجح ويمد ثرياً بالقياس الأمريكي لا بمقياسنا فقط ، هذا الرجل وزوجه وأخو وزوجه وهو مهندس معماري اشتغلوا وحدهم بإنشاء دار واسعة في الريف ، ولم يشركوا معهم في العمل الذي استغرق إنشاؤه ثلاث سنوات أحداً . وأترك لخيالك ما يتقوله الناس في بلادنا لو أن أحد « البيكات » أو « الأفندية » اشتغل هو وزوجه وأحد ذوي قرابته بإنشاء دار له ، وقد يكون هذا « الأفندي » أو « البيك » فقيراً بالقياس إلى هذا الأمريكي الذي ذكرته . كذلك رأيت أستاذاً جليل القدر عالي المكانة ، قد استحضر في بيته ما يحظر بالبال وما لا يحظر من أدوات النجارة ليشتغل بها في أوقات فراغه أو في أيام عطلته ، وقد بدأ عمله بتسقيف غرفة النجارة نفسها ، وقال : إن هذه يدخرها لأيام تقاعده . وفي البيوت التي دعيت إليها لم أجد خادماً أو طباًخاً ، بل كانت جميع أعمال المنزل تقوم بها ربة البيت ، ويساعدها الزوج والأولاد . وقد وجدت القوم والحق يقال يمتنون بضيوفهم عناية فائقة (مما يدل على شيمه الكرم عندهم ، أو عند من دعائي لضيافته على الأقل) .

أما في ميدان الاقتصاد ، فالأمريكي حر في ممارسة أي عمل يشاء ضمن القانون ، وله أن يربح أرباحاً طائلة لا حدود لها ، على أن دخله إذا زاد على حد معين يبدأ بدفع ضريبة متصاعدة عنه تتجاوز في بعض الأحوال الـ ٩٠٪ من الدخل ، وهي ضريبة ثقيلة ، ولكن قلما يستطيع الإفلات منها أحد . ففي الوقت الذي يشجعون فيه الإبداع الذاتي والإقدام على العمل الحر والربح الطائل ، تراهم يعملون على المحافظة على التوازن الاقتصادي ، فيأخذون ممن

عندهم ليرفخوا عن ليس عندهم بواسطة المشروعات العامة والمؤسسات المجانية ، والمال الذي يتبرع به كبار التمولين لمشروعات خيرية يعفى من ضريبة الدخل المذكورة . وقد ساق هذا المبدأ عدداً كبيراً من أصحاب الدخل العظيم أن يساهموا بمشروعات خيرية ضخمة يعود نفعها الى الناس عامة بمبالغ خيالية .

في معظم الجامعات أبنية نفحة تحمل أسماء الذين تبرعوا بإنشائها من أموالهم الخاصة ، ويصح مثل هذا القول عن المستشفيات والملاجئ ومراكز البحث العلمي ، بل إن قسماً من الحدائق العامة و « الباركات » تبرع بها ملاكوها خدمة لمدينتهم وترفعها عنها . والولايات المتحدة الأمريكية ، بلاد صناعية لا نظير لها في العالم . ولا ضرب لكم مثالين من مشاهداتي : دخلت معمل « سجاثر جستر فيلد » ، وهو من المعامل الحديثة ، فوجدت العامل فيه يتفرج أكثر مما يعمل ، ذلك أن العمل إنما تقوم به « المكائن » ، وهو يشرف عليها . يشتغل في هذا المعمل ١٨٠٠ عامل ، و « ماكينة » تلف « السجاثر » وتقصها وتتدفق هذه منها كما يتدفق الماء من حنفية دون انقطاع ، ثم تنتقل هذه « السجاثر » بصورة « أوتوماتيكية » الى « ماكينة » أخرى تعبئها ، كل ٢٠ سجارة في علبة ، وتلصق عليها ورقة المكس ، ثم تقوم « مكائن » أخرى بوضعها في صناديق أكبر ، ثم تخرج من المعمل على شريط سيار ينقلها رأساً الى سيارات النقل . ويكفي دليلاً على ضخامة إنتاج هذا المعمل أنه يدفع في كل يوم ما معدله مليون دولار مكسباً للحكومة عن « السجاثر » التي ينتجها .

أما المعمل الثاني ، فهو معمل « فُورْد » في مدينة « ديترويت » . ولغورد معامل في أماكن أخرى . ولا شك أن معظمكم قد قرأ وصف هذا المعمل في مجلة أو كتاب ، ولكن الخبر ليس كالبيان ، إذ فيه من الآلات ما يدهش العقل . فهذه المطرقة التي تفتت الصخر الحديدي يبلغ وزنها عشرين طناً ، وتلك « الماكينة » تقص الحديد كما يقص الطفل قطعة من الورق ، وثانية تغير هيئاته وشكله كأنه قطعة من المجين وليس من الحديد . ويخرج هذا المعمل في كل يوم ٦٣٥ سيارة ، يبدأ بها من المعدن الخام حتى تدرج على عجلات أربع . ويتبين لكم مدى « التصنيع » العظيم الذي بلغته هذه البلاد اذا علمتم أنها تشغل ٢٠٪ من سطح الكرة الأرضية

وتؤلف ٠.٧٪ من مجموع سكان الدنيا ، ولكنها تستعمل ٥٠٪ من مجموع المواد الأولية المستخرجة في العالم . ومما يساعد على تقوية الصناعة وزيادة الانتاج ، العمل على تشجيع الابداع والاختراع وتحسين الأشياء ، فهم حكومة وشعباً يساهمون في بذل الأموال الطائلة للبحوث الصناعية والعلمية ، ولا تخلو جامعة محترمة أو شركة كبرى من مؤسسات تابعة لها مفرغة للبحث العلمي ، ذلك بالإضافة الى ما تجربه بعض الدوائر الحكومية المختصة من بحوث سرية وعملية .

تذهب الى بعض المخازن فتجد الأبواب تفتح أمامك دون أن تمسها يد ، كأن الجن قد فتحها ، وقد تكون في غرفة فترى آلة طابعة تشتمل وتطبع دون أن يراقبها إنسان . وهذه الآلة تسمى « التيلغراف » ، وهي تطبع السككات التي يطبعها شخص ما على آلة طابعة أخرى قد تبعد عنها مئات أو ألوفاً من الأميال ، وهي أحياناً تثقب شريطاً اذا وضعته في آلة « اللينوتايب » صبت حروفه « أوتوماتيكياً » وربتها بحيث تكون حزمة للطبع .

إن اختراع « التلفزيون » أثر في الاقبال على « السينما » . ولكن شركات « السينما » لم تقف مكتوفة الأيدي ، فقد اخترعوا حديثاً نوعاً جديداً من « السينما » سموه « السيزاما » ، والتفرج لا يشعر أن شريط الصور يمر من أمامه ، بل يشعر كأنه هو المتحرك ، وتنير المناظر أمامه بسبب حركته هو كما يشعر راكب السيارة أو الضيارة أو السفينة . وهذا الاختراع لا يزال في أولى مراحلها ، فكيف به اذا تكامل ؟ والحقيقة أنك حينما سرت وأنتى نظرت ، وجدت علائق التجدد والابداع والتحسين ، ففناطحات السحاب ابداع في فن البناء ، والطرق التي لا تقاطع على مستوى واحد ابداع في فن انشاء الطرق وتنظيم السير . ولك أن تقول مثل ذلك عن الأثاث البيتية والأقمشة والملابس وغيرها .

ومن أعجب ما شاهدته ، كيفية نقل الكتب في مكتبة الكونكرس . تتألف هذه المكتبة من بنائتين عظيمتين تضمان ما يزيد على ١٢ مليون كتاب ، وتصل بين البنائتين أنابيب معدنية ضخمة تمتد في أقبية تحت الأرض ، وتنقل الكتب من بناء الى آخر ضمن هذه الأنابيب وبقوة ضغط الهواء فتصل كلج البصر ، ولولا ذلك لاستحالت تلبية طلبات الألوف من القراء . والواقع أن هذه الاختراعات والبحوث العلمية التطبيقية ، أدت الى ازدياد الرفاه وارتفاع مستوى

الميشة ، فقد توصلوا مثلاً بنتيجة البحث العلمي أن يولدوا أبقاراً تحلب الواحدة منها معدل ١٠٠ رطل (باوند) يومياً ، وتتلّ في السنة زهاء ٦٠٠ رطل من الزبد ، كذلك توصلوا بطريقة التغذية الخاصة أن يجمعوا الثور وزن وهو في عمر سنتين ما يزنه اذا بلغ أربع سنوات من العمر بالتغذية الاعتيادية . أما الدجاج ، فيجري تفريخه بالأفران الكهربائية . وقد أخبرني أحد المشتغلين أنه ينتج في السنة ثلاثة أرباع مليون دجاجة . ولا يسرح الفرخ قبل تلقيحه ضد أمراض الدجاج الوافدة ، ويُملّق على جناح كل فرخ تاريخ ميلاده والنوع الذي ينتمي إليه .

أما في ميدان الزراعة ، فحرث الأرض ، وزرع البذور ، والتسميد ، والسقي ، والحصاد ، والتصفية ، والطحن ، والخبز ، كل ذلك يجري بقوة « الماكينة » . أما الرز ، فيزرع على مرحلة واحدة ، ويبدّر بواسطة طائرة « الهليكوبتر » ، وأما كني زرع له ليست موبوءة بـ « الملاريا » كمناطق زراعة الشلب في العراق . وقد رجوت من أحد طلابنا الذين يدرسون الزراعة في كلية ليست بعيدة عن هذه المناطق أن يكتب أطروحته عن زراعة الشلب ، لعله اذا عاد يتمكن من خدمة بلاده بتغيير طريقة زرع ، فينقذ الآلاف من الناس من الأوبئة والأمراض ومن الأعمال الشاقة المؤبدة .

يمثل هذه التجارب ويمثل هذه الوسائل ، أمكنهم أن يوفرُوا للسكان الرفاه والغذاء الكامل ، وأن يقلصوا عدد الفلاحين ، فتزداد الأيدي العاملة في الحقول الصناعية .

* * *

لا بد لي في حديثي أن أنطرق الى أمور ثلاثة :

أولها ، تقصير العرب في الدعاية لأنفسهم .

وثانيها ، نبذة عن نظم التعليم ، وأهمية التعليم الجامعي .

وثالثها ، حالة الطلبة العراقيين هناك .

ومع أن كلاً من هذه الأمور يتطلب بحث ذاته أكثر من حديث واحد ، فسأختصر الكلام ما وسعني ذلك .

(١) إن البلاد العربية ونهضتها الحديثة وحقها في الحياة وكفاحها لنيل مكانتها الطبيعية

بين الأمم المستقلة ، مجهول لدى الغالبية العظمى من الأمريكيين ، حتى الطبقة المثقفة منهم . والتقصير إنما يقع على عاتق العرب أنفسهم . وأرى أن يتلافى ذلك بأن تقوم بعض الدول العربية أو الجامعة العربية بالوسائل الآتية :

(أ) أن توضع كتب باللغة الانكليزية عن البلاد العربية ، وأن تُهْدَى هذه الكتب الى مكتبات الجامعات والكليات والمؤسسات التي تعنى بالشرق الأوسط والمكتبات العامة والمتاحف ، فالكتب أخذت على الزمن من المقالات التي تكتب في الجرائد اليومية ، كما أنها مرجع للباحثين والمؤلفين يثقون به أكثر من ثقتهم بالمقالات العابرة .

إن معظم ما ألف من كتب باللغة الانكليزية عن البلاد العربية إنما كتب بأقلام أجنبية ، وما أندر ما كتب بأيدي عربية ! والحقيقة أن ما ألفه الغربيون عن العرب من كتب في العصور المتأخرة يزيد كثيراً عما كتبه العرب عن أنفسهم حتى بلغتهم ، وأكثر من ذلك أصبحت مؤلفاتهم مراجع للدولفين العرب أنفسهم ! ولا حجة لنا الآن بعد أن ازدادت الطبقة المثقفة الواعية ، فمن الواجب أن نعرف أنفسنا للغرب بلغات الغرب ، إذ أن للغرب تأثيراً عظيماً على سياسة العالم شئنا أو أبينا ، فلديه القوى « الميكانيكية » ولديه السلاح ولديه العلم . ولا يستطيع الإيمان بعدالة قضايانا وكتابة المقالات النارية ونظم الشعر وحدها ايصالنا الى حقوقنا المنشروعة ، بل علينا بالإضافة الى إيماننا ومقالاتنا وأشعارنا أن نعمل بصمت وهدوء لاقتباس هذه القوى « الميكانيكية » الهائلة والسلاح والعلم كما فعلت اليابان ، فاذذاك فقط يكون لنا وزن ثقيل في السياسة العالمية . وإننا حتى لو بلغنا هذه المرحلة ، فلا غنى لنا عن تعريف أنفسنا للعالم خارج بلادنا ، وألا نترك ذلك العالم يعمل وحده على فهمنا ووضع الكتب عنا ، فقد يسيء فهم الكثير مما نعتز به من عادات وتقاليدها قيمتها الانسانية ، ليس بالقياس اليها وحدنا ، بل بالقياس الى المجتمع البشري عامة ، وفي الوسع اذذاك أن نسير في هذا العالم بشكل مشرف .

(ب) أن توضع « أفلام » سنائية ناطقة ملونة عن نهضة العرب وتأريخهم وخدماتهم الجارية للحضارة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة ، وأن توزع هذه الأفلام على السفارات والمفوضيات كما يبعث بها الى الجامعات التي فيها طلاب من العرب ، لتعرض في الفاسمات التي تستدعي ذلك ،

وهذا العمل فضلاً عما فيه من دعاية حسنة ، يربط الطلبة ببلادهم ، ويوثق صلّتهم بها .

(٢) لا يوجد نظام موحد لمراحل التعليم في الولايات المتحدة ، فلكل ولاية تنظيماتها الخاصة ، ولكل مدرسة طرقها في تنظيم مناهجها وإقرار الكتب التي ترغب في تدريسها ، وتقوم الحكومة المركزية بجمع المعلومات التربوية وما يستجد من آراء وتجارب في التعليم وأساليبه ، وتوزعها على الولايات جميعاً للاستفادة منها . ويناهز عدد الطلبة في مراحل التعليم كافة ٣١ مليوناً . أما تكاليفه فتبلغ زهاء ٧٠٠٠ مليون دولار تتعاون على دفعها الحكومة المركزية وحكومات الولايات والادارات المحلية والأهلون بما يمنحونه من أجور وتبرعات أو أوقاف دائمة .

ويعد حق الطفل في التعلم من الحقوق الطبيعية التي لا مناص منها ، ويجب أن تتظافر جميع القوى على تهيئة الوسائل الضامنة لتعليم جميع الأطفال بصرف النظر عن مكانة أسرهم الاقتصادية والاجتماعية . ومدة التعاميم الإلزامي تتراوح من ثماني سنوات الى اثنتي عشرة سنة على حسب التشريع المعمول به في كل ولاية ، وفي معظمها مدته تسع سنوات ، ومعدل كلفة الطالب السنوية في هذه المرحلة تناهز ٢٠٠ دولار ، أي ما يزيد على ال ٧٠ ديناراً ، ولا يدخل في هذا الحساب تكاليف المنشآت الثابتة كالمباني الدراسية والأقسام الداخلية والمكتبات والمختبرات وساحات الألعاب والأثاث . يقابل ذلك في العراق ما لا يزيد عن الخمسة عشر ديناراً ، ومثل هذا الرخص يؤدي الى النتائج الرخيصة التي نشكو منها . ومدة الدراسة الابتدائية ست سنوات أو ثماني سنوات . وفي الحالة الأولى تكون مدة الدراسة الثانوية ست سنوات تعطى على مرحلة واحدة ، وأحياناً تُقسّم الى مرحلتين طول كل منها ثلاث سنوات ، وفي الحالة الثانية تكون مدة الدراسة الثانوية أربع سنوات تعطى على مرحلة واحدة ، أي أن مجموع الدراستين الابتدائية والثانوية يبلغ اثني عشر عاماً .

وقد لاحظت في المدارس الابتدائية التي زرتها أنهم يقسمون فترة الصباح الى دورتين ، أمد كل منهما ساعة ونصف ، وبعد الظهر دورة ثالثة مثلها ، والمعلمة لا تقيد بتدريس موضوع واحد

خلال الدورة ، بل قد تدرس مجموعة من الموضوعات المترابطة . ويتوخون في التدريس الابتدائي مساعدة الطفل على النمو بجسم صحيح وعقل سليم وعواطف متزنة ، وتوجيهه ، ليكون قادراً على الاستفادة الفعالة من وسائل التعلم كالقراءة والكتابة والتفكير والتحليل ، وقدرأ على حسن المعاشرة والطاقة على فهم مشكلاته الشخصية والاجتماعية ومعالجتها مع تنمية « أولاده » الابداعية والتقدم به لفهم محيطه الطبيعي والاجتماعي ، وليفهم أخيراً معنى « الديمقراطية » كما يطبق في مختلف نواحي الحياة .

أما الدراسة الثانوية ، فتستهدف بالإضافة الى ذلك معرفة الطارق العلمية ، وأهمية العلم في الحياة ، والتدريب العملي ، والاستعداد للحصول على عمل في المجتمع والاحتفاظ به ، مع حسن تقدير للقيم الخلقية وللجمال الطبيعي والفني ، وأن يهيأ ليكون عضواً نافعا في الأسرة .

وقد تدهشون اذا قلت لكم : إن مجموع الموضوعات النظرية والعملية التي تعطى في الثانويات ، تبلغ ٢٧٤ موضوعاً مختلفاً ، يختار الطالب منها ما يروقه . ومن البديهي أن هذه المجموعة لا تدرس في مدرسة واحدة ، بل هي موزعة بين جميع المدارس الثانوية ، تدرس كل منها ما يتناسب حاجات محيطها ، على أنه في منهج كل طالب ما لا يتجاوز ٥٠ ٪ من الدروس الاجبارية ، على أن يختار الباقي بحسب قابلياته وبارشاد مدرسيه .

والعناية بالتعليم المهني عظيمة ؛ لأن الحاجة اليه شديدة ، ولأنه يفتح أبواب العمل والكسب أمام الشباب . وقد وجدت الانسجام وثيقاً بين المدرسة وحاجات المجتمع المحيط بها ، وفي المدارس الكبرى من هذا النوع من « المكنائن » والمُعدّد ووسائل التدريب ما يبلغ ثمنه ملايين من الدولارات ، وبعض الشركات الصناعية الكبرى تهدي أحدث أنواع « المكنائن » ليتدرب الطلاب عليها لتستخدمهم بعد ذلك عندها ، ولرجال الأعمال دخل كبير في تنظيم مناهج هذه المدارس ، فهم إن لم يكونوا من ضمن الهيئة المشرفة فلا أقل من أن يزوروا المدرسة ويعرفوا المدير وهيأة التدريس والتدريب بنوع العامل الذي يريدونه ، وهم يفاوضون الطلبة الذين سيتخرجون للعمل عندهم . ولا يعين للتدريس في هذه المدارس إلا من تخرج في مدرسة للفنون الصناعية بدرجة B. A. ثم مارس العمل بنجاح في أحد المعامل مدة لا تقل عن أربع سنوات .

على أن الكثير من هؤلاء يفضلون البقاء في المعامل ، لا يدرّء عليهم ذلك من أجر وافر . ويشغلون بالتدريس كعمل إضافي يتقاضون عليه أجراً آخر . ففي زيارتي لإحدى المدارس ، وجدت صفوف الكهرباء « والميكانيك » و « الألكترونيكس » ، وهي التي تعلم « الراديو » و « الرادار » وأضرابها ، فارغة ، وقيل لي : إن الموظف المسؤول عن التدريس لا يحضر صباحاً ، لأنه يشتغل في أحد المعامل ، مما اضطرهم إلى جعل الدروس مسائية بسبب ندرة المختصين القديرين في مثل هذه الفروع وشدة الانبال عليهم . وهذه المدارس تقبل الأعمال الخارجية وخاصة ما يخرج عن المؤلف منها . فتشجيم السيارات مثلاً أمر سهل ، في وسع الطالب أن يتعلمه أنى شاء . أما السيارة التي أصابها عطب كبير أو خلل في أجزائها الداخلية الحساسة ، فأمر لا يحدث كل يوم . وهذا النوع من العمل هو الذي يفضلونه . وما يزيد على نصف طلبة المدارس الثانوية ، يقبلون على دراسة المهن الصناعية والزراعية والتجارية والفنون المنزلية .

وتبدأ مرحلة التعليم العالي بعد انتهاء الطالب من دراسة اثنتي عشرة سنة في التعليمين الابتدائي والثانوي ، ويبلغ عدد المعاهد العالية في الولايات المتحدة زهاء ١٨٦٠ معهداً معترفاً به ، تضم زهاء ٣ ملايين طالب وطالبة ، واندراسة في معظمها مختلطة بين البنين والبنات ، ويصل عدد الطلاب في بعضها إلى حدود ٥٠ ألف طالب ، ونسبة عدد الطلبة في المعاهد العالية إلى مجموع السكان تقرب من ٢٪ . أما في العراق فهي ١ في الألف ، أي أن عدد طلبة هذه المعاهد في العراق يجب أن يكون ٢٠ ضعفاً لتصبح نسبتهم ٢٪ كالنسبة في الولايات المتحدة .

وتعامل المعاهد العالية بسخاء عظيم ، وإن شكاً بعضها من قلة المال . فهذه « جامعة بيركلي » مثلاً ، تبلغ ميزانيتها ٥٢ مليون دولار لتسيير دفة الأعمال فقط ، مع ثمانية ملايين دولار أخرى لإنشاء بعض المباني . ويبلغ عدد طلابها ٣٤ ألف طالب . وعلى ذلك فإن كلفة الطالب الواحد تتجاوز ١٥٠٠ دولار في السنة أي ما يزيد ٥٠٠ دينار ، ولا تدخل في هذا الحساب كلفة الأموال غير النقولة التي شيدتها الجامعة أو تقوم بتشبيدها .

واليك نموذجاً آخر : « جامعة ميريلاند » التي تبلغ ميزانيتها ٢٠ مليون و ٤٠٠ ألف دولار ، وعدد طلبتها اثنا عشر ألفاً بين مسائي ونهاري ، أي أن كلفة الطالب الواحد تتجاوز ١٧٠٠

دولار في السنة ، وتبلغ مساحة أرضها وحقولها زهاء ١٧٠٠ فدان ، أي زهاء ثلاثة آلاف مشاركة . وكلية الزراعة في هذه الجامعة تشرف على الأعمال الزراعية في جميع ولاية « ميريلاند » ، أي أنها تقوم مقام وزارة الزراعة عندنا ، فهي المسؤولة عن تأسيس الحقول التجريبية وإرشاد الفلاحين وتنظيم شؤون الزراعة ، وهي ناجحة في مهمتها أكثر من نجاح بعض الدول التي لها وزارة زراعة .

وفي المراحل الأولى من التعليم الجامعي ، تختلف مناهج التدريس في الجامعات الانكليزية عن مثيلاتها في الجامعات الأمريكية . ففي انكلترا يؤكدون في هذه المرحلة على المواد التي تقع ضمن الاختصاص الذي يرغب الطالب في دراسته . فإذا أراد الطالب أن يتخصص بأحد فروع الهندسة أو الزراعة أو الكيمياء ، فإن المادة الدراسية تكون جميعاً ذات علاقة مباشرة بالاختصاص ، أي أنها جزء منه أو أنها ضرورية لفهمه . أما في الولايات المتحدة ، فعلى الطالب في هذه المرحلة أن يدرس عدداً من الموضوعات الاجتماعية كتأريخ الحضارة أو الاقتصاد أو غيره أحياناً وإن لم يكن لهذا كله علاقة باختصاصه ، ويرون أن ذلك يوسع أفق الطالب الاجتماعي ، ويسهل اندماجه في المجتمع ، ويجعل منه مواطناً أوسع معرفة بعلاقات البشر وأقدر على السلوك فيها .

وتتمتاز معاهد التعليم العالي في الولايات المتحدة وفي أوربة أيضاً بعنايتها الخاصة بأمرين : الأول نشر المعارف الموثقة عن الأمور التي يحتاجها المحيط ، وبالتعاون مع ذوي الخبرة والرأي من أصحاب الأعمال فيه . والآخر تأكيدها - في المراحل الأخيرة من التعليم العالي - على البحث العلمي ، والكشف عن حقائق جديدة بمجولة واستخدامها إن أمكن ، أو تنبيهها ليستفيد منها الباحثون الآخرون .

وتتجلى روح الخدمة الصادقة والانسانية العاملة الشريفة لدى هؤلاء العلماء والباحثين ، وكثير منهم ينزلون عن مصالحهم الخاصة وعن النافع التي يمكن أن يجنوها لمصلحة المجموع . وقد رأيت بعضهم يجلس الى ما بعد منتصف الليل . وقيل لي إنهم يستمرون أحياناً الى الصبح ، يتربون نتيجة تجربة يقومون بها .

والحقيقة أن حضارة أمريكة العظيمة إنما تقوم على أكتاف هؤلاء وبمقولاتهم الجبارة وصبرهم وجلدهم على العمل . فعالم واحد قد يؤدي للحضارة من الخدمات ما يعجز عنه ألوف من البشر ، واكتشاف مهم واحد قد يقوم مقام الجيوش الجرارة . ومن المؤسف امكان استغلال الاكتشافات هذه العقول النيرة في التطاحن السياسي للدمار بدلاً من أن تكون عاملاً مرفهاً للإنسانية بأسرها .

لا يوجد نظام موحد للجامعات ، بل هي كلها حرة في الخطة التي تضعها والمناهج التي تطبقها ، والكليات الحكومية وتسمى State colléges or uni أو Sand grant college or uni ، وتعنى كلها بالموضوعات والبحوث الهندسية والزراعية على اختلاف أنواعها من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، ولكنها تؤكد كثيراً على الناحية الأخيرة . ومعظمها تصل الدراسة فيه الى مرحلة « الدكتوراه » .

وفي مرحلة ما بعد الـ B. A ، وتسمى graduate Study أو Post gra. study ، تختلف الجامعات قوة وضعفاً في موضوع ما من الموضوعات أو في دائرة من الدوائر العلمية بحسب قوة الأُساندة القائم على التدريس فيها وضعفهم ، فجامعة « هارفرد » مثلاً اشتهرت بدراسة القانون ، ذلك لأنها تختار أحسن الأُساندة ولا تبخل في سبيل ذلك بشيء ، وجامعات وكليات أخرى اشتهرت بعنايتها بالزراعة أو الهندسة أو التجارة أو غيرها ، وقليل عسدد الجامعات التي اشتهرت بمعظم هذه النواحي في وقت واحد .

وفي جميع الكليات والجامعات التي زرتها ، وجدت المختبرات غنية جداً بالآلات و « المكائن » والمواد ، وبعضها مصنوع في الجامعة نفسها من قبل الطلاب ، ذلك عدا ما يأتي عن طريق التبرعات أو من الميزانية السخية .

(٣) ويسرني بهذه المناسبة أن أبين أن حالة الطلبة العراقيين هناك جيدة للغاية ، فالقوم هناك يمتنون بالغريب ، وفي كل جامعة زرتها وجدت أستاذاً متفرغاً لإرشاد الطلبة الأجانب ونصحهم وحل مشكلاتهم وتوجيههم الى ما فيه الخير لأنفسهم وبلادهم . ومعظم الطلبة ناجحون . وقد تمكن القسم الأعظم منهم أن يوفق نفسه للمحيط الجديد . واذا تذكرنا أن عدد الطلبة يناهز

ال ٨٠٠ ، وجب ألا نستكثر وقوع بعض الحوادث الخارجة عن المألوف .

ويمكن إرجاع مشكلات الطلبة الى أمرين :

الأول - أن معظم من أرسل من الطلبة حتى الآن ، كان من خريجي المدارس الثانوية ، لم يكمل بعد نضجه النفسي والعاطفي . والطفرة بمثل هؤلاء من محيط بلادهم الى محيط آخر يختلف كل الاختلاف بطبائمه وعاداته وأساليب حياته ، يؤدي أحياناً الى ضرر مادي أو معنوي . فبعضهم مثلاً لا يعرف كيف يتصرف تصرفاً حكيماً برواتبه ، فيستدين ، ثم يماطل في الدين ، وبعضهم يقع في مأزق عاطفية ويتمنى لو كان في وسعه أن يعالجها على غير الأسلوب الذي تعالج به الأمور هناك . وقد أخبرت أن اثنين حاولا الغش في الامتحان ، ولكنها بعد ذلك تابا وعملا صالحاً . وروى لي أستاذ أن أحد الطلبة كان يبصق حينما يروقه ، ولم يترك هذه العادة الا بعد أن رفض الطلبة الآخرون قبوله في غرفتهم . وقد تبين لي أنه من الضروري أن يعطى مثل هؤلاء الطلبة دروساً في أساليب الحياة الصالحة قبل تسفيرهم ، أو أن يقتصر ارسال البعثات على خريجي المعاهد العالية .

الآخر - جهل اللغة الانكليزية ، فستوى دراسة هذه اللغة في ثانوياتنا لا يكفي لتابعة دروس جامعية مع طلاب لغتهم البيتية هي اللغة الانكليزية ، فضلاً عن أن الطالب الأمريكي يدرس اثنتي عشرة سنة قبل التحاقه بالجامعة ، وطالبنا يدرس احدى عشرة سنة فقط ، وكل ذلك مما يجعل عملية الدرس وفهم المحاضرات شاقة قد يفجم عنها إرهاق فكري وخاصة في المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية . وهذا مما يدعو الى تدريس بعض موضوعات الدراسة الثانوية باللغة الإنكليزية بالإضافة الى تدريسها كلفة ، وذلك في أثناء الدورة التي أشرت اليها .

وبتحلى الأستاذة بروح التعاون والمساعدة للطالب الأجنبي ، فالذي يتأخر أهله عن إرسال رواتبه في الوقت المعين يقرضونه أحياناً شيئاً من المال لتدبير أمور معاشه ريثما تصل اليه رواتبه . ومع أنه لا يسمح لأجنبي بالعمل في المعامل الا بأذن خاص ، تجد عدداً من الطلبة الأجانب يشتغلون في المعامل والمؤسسات الأخرى ، وقد نالوا ذلك بمعاونة أستاذتهم ، وفي الأحوال التي اطلعت عليها ، كانت الأجور كافية ليقوم الطالب بأود نفسه ودفع نفقات دراسته ، على أن

الطالب الذي يدرس على هذه الطريقة يحتاج الى وقت أطول لإيجاز تحصيله . ولكنه على كل حال يكتسب خبرة ومرآة اذا كان العمل ينسجم وما يتخصص به ، أو على الأقل يجعله يدرك أن العمل هو الطريق الشريف للحصول على المال . وطلابنا مع استثناءات قليلة يبذلون جهدهم للاستفادة من محيطهم العلمي والعمل ، وأتوقع منهم كل خير للبلاد عند عودتهم بشرط أن يتجنبوا الغرور والاعتقاد بأنهم أصبحوا أنصاف آلهة ، وعليهم أن يتذكروا دائماً بأنهم درسوا على نفقة هذه الأمة حتى من ذهب منهم على حسابها الخاص ، وأنهم تعلموا ليعودوا خدماً لقومهم وبلادهم ، لا سادة متحكين ، وألا يستخذفوا بأراء الفضلاء الذين لم تنح لهم فرصة الدراسة النظامية ، فقد يوجد بين هؤلاء من ينزهم في أصالة الرأي وسعة الخبرة وقوة الإيمان والقدرة على العمل النافع والاستجابة للتضحية . فليس كل الذين لا يحملون الشهادات العالية قوماً لا يفقهون ، وليس كل من حمل شهادة عالية صار من المزهين الذين لا يخطئون ، بل إن مجرد الحصول على الشهادة فيه ضرر كبير اذا عقبه خمول فكري وكسل في الانتاج العلمي والعمل ، إذ تصبح الشهادة إذ ذاك لا الكفاية والخلق المتين هي السلاح الذي يشهره صاحبه بوجه المجتمع . وعليهم أن يدركوا أن الشهادة مهما كانت درجتها إنما هي مفتاح للدخول في معترك الحياة ، وأن تحصيل العلم واستخدامه لفائدة المجموع عملية تستمر طوال العمر ، ولكنها تبتدىء بإنجاز الدراسة في المدرسة التي هيأته بعض الشيء لمواجهة الحياة . وعليهم فضلاً عن ذلك أن يتحلقوا بروح التعاون والعمل الجدي المجدي الصامت ، فلا فائدة ترجى من كثرة الكلام اذا لم يصحبه عمل مثمر نافع . وفي هذه البلاد يجب ألا نكتفي بالشكوى من فساد الأحوال ومن حالة التأخر في البلاد ، بل يجب أن نتعاون على إدخال الصناعة وانشاء المعامل وجعل الزراعة على أسس ميكانيكية . فهذه هي التي ترفع مستوى البلاد المعاشي وترفع سكانها . وانني أرجو لهم ولكم وللجميع التوفيق الإلهي لخدمة هذا الوطن خدمة صادقة ، كل ضمن نطاق عمله ، وبقدر ما تجود به مواهبه